

نفحات القرآن

[226] يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) ، أَي أَنْهَاهَا (الأصنام)
إن لم تنفع ولم تضرّ فلا بدّ من أن تسمع نداء عبّادها على الأقل وإلاّ لا معنى لعبادتها .
ولكن أولئك الذين لم يجرؤوا على الإدّعاء بأنّ الأصنام الحجرية والخشبية تسمع دعاءهم
وتضرّهم ، كما أنهم لم يمتلكوا دليلا على إثبات ضررها ونفعها لتبرير عملهم ، إضطرّوا
للممسك بأسلافهم والتشبّث بالتقليد الأعمى وقالوا : (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ) . وهذا الجواب وإن كان مخجلا إلاّ أنّهم لم يملكوا شيئا ليقدّموه . وفي طول
هذه الآيات يردّهم إبراهيم (عليه السلام) بمنطق رصين : (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَاِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الذي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والذي هو يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذي
يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) (1) . أَي أَنْهَ أَهْلَ
للعبادة فهو المبدء لكلّ الخيرات والبركات ، لا تلك الموجودات الخاوية والفاقدة للقيمة
. وتنقلُ الآية الثالثة كلاماً لقوم فرعون وفيها إنعكاس لهذا المضمون بشكل آخر حيث تقول
: (قَالُوا اجِئْنَا لِنَتَلَفْتَنَ أَعَمًّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي
الْأَرْضِ) (2) وعليه (وما نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ) . إنّهم إستندوا – في الحقيقة – إلى
هذه النقطة فقط لإثبات صحّة مسلكهم وقداسته وهي أنّ هذا هو طريق الأسلاف ودينهم وعادتهم
، ولكي يتّهموا موسى وهارون بأنّهما يتآمران قالوا : إنّكما تبغيان الحكومة عن طريق
الدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الأصنام من أساسها ولا نسمح بذلك ! ويبدو أنّ هذا
الكلام أُلقي من قبل زبانية فرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون

1 – سورة الشعراء : آية 75 – 81 . 2 – (لتلفتنا) من (لفت) وهو الصرف عن الشيء أو الإلفات إلى الشيء لو تعدّت بـ (من) فإنّها تعني الإنصراف
و بـ (إلى) فإنّها تعني (التوجّه) .